مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

قراءة في كتاب

قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر (الجزء الثاني)

الحاكمية، السلام، التسامح ...

للدكتور محمد الناصري

جواد حمزاوي
طالب باحث في سلك الدكتوراه
الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية
جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال
المغرب

جميع الحقوق محفوظة © 2025
All rights reserved © 2025

لجنة الإعلام والتواصل

أولا: مداخل تأطيرية:

أ-مكانة الكاتب:

الأستاذ محمد الناصري، أستاذ الفكر الإسلامي، جامعة السلطان مولاي سليمان هو من الاساتذة الباحثين الذين يحملون مشروع إعادة النظر في التراث الإسلامي، ومحاولة تجديده من خلال استلهام روح الفكر الإسلامي القائم على التجديد والاجتهاد، لذلك فإن أعماله الفكرية كان محركها هو إماطة اللثام عن المعرفة الإسلامية الأصيلة وبيان قيمتها، وتجاوز حصرها في التاريخ والإيديولوجيا لهذا فإن الأستاذ محمد الناصري كان رهانه ينصب على الاشتغال على المفاهيم الأساسية التي شغلت الفكر الإسلامي ومحاولة نقدها، وتفكيكها، وإرجاعها إلى أصولها، وبيان الافتراضات التي انطلقت منها، وابراز دلالتها الشرعية التي في كثير من الأحيان هيمنت عليها دلالات أخرى حجبت معناها وحقيقتها القائمة على السلم، والتسامح، والعدل والرحمة.

ب-مكانة الكتاب:

يمثل كتاب الأستاذ الدكتور محمد الناصري "قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر "إسهاماً منهجياً رصيناً في مشروع تجديد الفكر الإسلامي، حيث يجمع بين النقد المعرفي العميق والتأصيل الشرعي الأصيل. ينطلق الكتاب من رؤية إبستيمولوجية تعيد تقويم المفاهيم المركزية كالحاكمية والحرية والجهاد والسلم، عبر منهجية ثلاثية الأبعاد: تفكيك التراث التاريخي، ومساءلة الخطابات الأيديولوجية، وإعادة البناء انطلاقاً من فلسفة الوحي. يتميز العمل بتركيبة منهجية فريدة تزاوج بين التحليل والنقد والتفكيك ، مع التركيز على نماذج تطبيقية كوثيقة المدينة وميثاق نجران كتجسيد عملي للرؤية الإسلامية الأصيلة. يقدم الكتاب إذن مشروعا متكاملا لـ"علم المراجعات" الذي يقارب التراث بروح نقدية لا تهدف إلى أحداث قطيعة مع التراث. بل ترمي إلى بلورة رؤية تجديدية متوازنة تتجاوز ثنائيات الجمود والتغريب، مع الحفاظ على الهوية الإسلامية وجعلها قابلة للتفاعل مع مستجدات العصر، مما يجعله مرجع أساسيا في الدراسات الإسلامية المعاصرة ومدخلا منهجيا لإعادة بناء العقل الإسلامي على أسس معرفية رصينة.

ثانيا: المنطلقات النظرية للكتاب:

أ-**المنطلق الإبستيمولوجي**: يتمثل في النقد المعرفي القائم على التحليل والتفكيك، والتركيب من خلال تتبع تطور الفكر الإسلامي المعاصر منذ تجربة النهضة مرورا بالإصلاح، ثم خطاب التجديد، والنقد هنا ركز على تشكل المفاهيم في التراث العربي الإسلامي ومدى انضباط هذه المفاهيم لفلسفة الوحي.

ومن أبين أبرز هذه المفاهيم التي تناولها الأستاذ بالنقد مفهوم الحرية في الفكر العربي المعاصر من خلال التطرق لنموذج "أبو القاسم الحاج حمد" حيث أن تناول الفكر الإسلامي للحرية له خصوصية ووضع خاص مقارنة مع مفهوم الحرية كما تبلور في المجال التداولي الغربي الذي تم النظر إليه في علاقته بالحتمية الطبيعية والاجتماعية والسياسية والتاريخية، بينما مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي يحيل بالضرورة إلى الفعالية الإلهية والنقاشات الكلامية خير مثال على ذلك.

والدراسات التي تناولت مفهوم الحرية لم تبلغ درجة العمق والعلمية وحبست نفسها في مواقف إيديولوجيا مسبقة اصبحت تقدم نفسها باعتبارها مسلمات، ولم تتجاوز مستوى التعميم وظلت تنظر للحرية بنظرات غربية، يقول الأستاذ الناصري في هذا السياق: " فمعلوم أن المفاهيم ليست مجرد أداة تقنية تستجلب أو آلة مادية جاهزة تشترى، بل هي كائن حي تنعكس فيها تجاربه الخاصة التي تؤطر تلك الرؤية وتحدد لها مقاصدها وأهدافها. فالمفاهيم كما قيل مفاتيح العلوم، وهي مواليد تنمو وتكبر وتزدهر، وتضعف وتشيخ وتضمحل ويجري عليها ما يجري على الكائن الحي من لحظة الميلاد إلى لحظة الوفاة، لذلك كانت دائرة المفاهيم أهم ميادين الصراع الفكري والثقافي بين الثقافات عبر التاريخ وستظل."[1]

تكتسي هذه المقاربة الإبستيمولوحية النقدية رهنيتها ومشروعيتها من التشويه الذي تتعرض له المفاهيم في الزمن المعاصر زمن العولمة والتدفق الهائل للمعلومة حتى أصبح المتلقي في حيرة من أمره وفقد بوصلة الطريق، والحرية من المفاهيم التي تعرضت للتشويه.

ومفهوم الحرية كان مفهوم مركزي لدى رواد النهضة حيث أن "خير الدين التونسي" مثلا اعتبر أن أسباب العمران في كل المجتمعات الإنسانية على اختلاف دينها ولغتها وموقعها الجغرافي تتأسس على الحرية،

1 محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر الحاكمية، السلام، التسامح...، الجزء2، ط1، 2023، ص11.

وأن تقدمها المادي والاقتصادي رهين بتوفر شرط الحرية، مستشهدا في ذلك بما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته والتاريخ الإسلامي والإفرنجي ومتحدثا عن نتائج الحرية الاقتصادية في أوروبا القرن التاسع عشر.

مع "خير الدين التونسي" كان هناك وعي بأهمية الحرية في تحقيق النهضة المنشودة لأنها أساس التحول الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والتاريخي... لكنه لم يتجاوز هذا المستوى إلى مكانة أرحب تفصح عن الملامح الحقيقية للمفهوم الحرية في الفكر الإسلامي.

فعلا مفهوم الحرية بعد تجربة " خير الدين التونسي" نجده عرف تحولا حيث أصبحت الحرية نهج ووسيلة للمقاومة وتعبر عن رغبة في الاستقلال وهذا ما نجده عند "لطفي السيد" الذي اعتبر الحرية في كتابه: " تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع" أهم من الخبز والماء، حيث يقول: " لو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية. ولكن غذاءنا الحقيقي الذي به نحيا ومن أجله نحب الحياة ليس هو إشباع البطون الجائعة. بل هو غذاء إرضاء العقول والقلوب، وعقولنا وقلوبنا لا ترضى إلا بالحرية."[1]

لقد كان التوجه الليبرالي واضحا في خطاب لطفي السيد واعتبر هذه الإيديولوجية أساس عقلنة المجتمع والمؤسسات، بل إن الحرية تتحول إلى عقيدة وخلاص كفيل بتجاوز كل الإخفاقات والنكبات والتخلف الذي خيم على المجتمعات العربية قرونا طويلة.

ومفهوم الحرية سيتخذ صيغة مخالفة مع تجربة "الطاهر بن عاشور" الذي قدم قراءة أصولية ومقاصدية لمفهوم الحرية فهي إحدى المصالح الأساسية والضرورية التي يقوم عليها المجتمع ويجب على ولاة الأمور تحقيقها وصيانتها، مدافعا بشدة عن فطرية الحرية حيث يقول: "والحرية بهذا المعنى حق للبشر على الجملة، لأن الله لما خلق للإنسان العقل والإرادة وأودع فيه القدرة على العمل فقد أكن فيه حقيقة الحرية وخوله استخدمها بالإذن التكويني المستقر في خلقه."[2]

1 المرجع نفسه، ص16.
2 المرجع نفسه، ص17.

وهذه الحرية الفطرية ليست حرية مطلقة لا حدود، ولا ضوابط لها بل هي حرية تخضع للقواعد وبالتالي فهي مقيدة على اعتبار أن الإنسان ماهيته العقل وهذا الاخير يضع الحدود ويرسم مجال الحرية الإنسانية.

تميزت تجربة "الطاهر بن عاشور" بالأصالة فهو حاول أن يؤصل للمفهوم من داخل المجال التداولي للثقافة العربية الإسلامية لكنه لم يبلغ درجة العمق التي تكفل له البحث في الحرية بوصفها مبحثا وجوديا وإنسانيا واجتماعيا، ولكن مع ذلك تحسب له كفقيه تقليدي الجرأة على الخوض في النقاش حول مفهوم الحرية.

رغم القصور الذي يمكن لمسه في تناول الفكر العربي الحديث للمفهوم الحرية فإن الوعي بأهمية المفهوم وأبعاده السياسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والثقافية كان حاضرا وهكذا يتم دحض الأطروحات الإيديولوجية التي تعطي لنفسها الأسبقية في تناول المفهوم.

ومن بين النماذج التي تحقق لها الوعي بالحضور البارز لمفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث وحاول تجاوز هذا الحضور نحو حضور من نوع آخر يتم في تناول مفهوم الحرية تناول منهجي، يعيد النظر في المنهج ذاته ويؤصل له من داخل فلسفة الوحي لأن غياب التناول المنهجي يجعل أي بحث رغم ما يمكن أن ينطوي عليه من اجتهاد وإبداع وعبقرية أقرب إلى التأمل وبعيد عن بناء معرفة علمية دقيقة ومضبوطة.

التناول الذي يقدمه "الحاج حمد" هو تناول نقدي اتجاه الذات والغير، ومحاولة لتسليط الضوء على العوائق التي حالت دون ظهور مفهوم الحرية في صيغته الإسلامية هذه العوائق التي تتجلى في الأحادية والتعصب وطغيان التاريخ على الوحي.

ومن خلال هذه الرؤية التجديدية النقدية يشير "أبو القاسم الحاج حمد" إلى أن الحرية في الإسلام ثمرة لوعي الإنسان ولإطلاق عقله كونيا حيث أن الحرية تكمن في الذات والله عز وجل زود الإنسان بما يحقق له الحرية من سمع وبصر وفؤاد.... فكلما تعمق وعي الإنسان بذاته أدرك رحابة حريته التي تجعله يسبح في الكتاب المسطور والكتاب المنظور.

وما يضبط الحرية في الرؤية الإسلامية ويميزها عن النماذج الأخرى: أنها حرية مقيدة إلى أخلاق الروح وتتجاوز الرغبات والأهواء والغرائز والميولات، فالروح هي سلطة فوق النفس والحواس والبدن، وهي الموجه والمتحكم في سلوكات الأفراد، وهي ما يجعل الإنسان ينفصل عن ذاته ويترفع عن رغباته ولا يستجيب إلا للشرعي والمعقول منه، هكذا تكون الحرية تحرر وتجاوز وترفع وسمو وتعالي بالإنسان إلى مرتبة يتجاوز فيها كل الكائنات الطبيعية الأخرى التي يشترك معها في الحياة.

وينتقد " أبو القاسم الحاج حمد" الدلالات السلبية التي اكتساها مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي والتي لا تعبر عن فلسفة الوحي وأن هذه الدلالات ارتبطت بتجارب تاريخية وبأحداث سياسية وصراعات مذهبية من خلال هذه الرؤية يرفض ترتيب أية عقوبة جسدية أو بدنية عن الردة مستندا في ذلك إلى القرآن الكريم رافضا تصور الفقهاء معتبرا الحرية في الإسلام جعلها الله عز وجل تنال أقصى مدى.

يستنكر " أبو القاسم الحاج حمد" في هذا السياق استخفاف الحركات الدينية المتطرفة بمشاعر الناس لتستعلي بهم في السلطة، مدمرة لمفهوم الحرية في الإسلام وناسفة لقاعدة السلم كافة، ومعطلة لقوى السمع والبصر والفؤاد، ومتحولة بالإسلام إلى وجهة محاكم التفتيش والإرهاب ضد أسسه الكونية، وموقع الإنسان في هذه الكونية. وبما أن هذا المنحى اللاإسلامي قائم على تعطيل السمع والبصر والفؤاد، فليس غريبا أن تكون هذه الحركات اتباعية النهج لأنها عمياء."[1]

لقد بنى " أبو القاسم الحاج حمد" مفهوم الحرية من خلال نقد النماذج السابقة سواء الغربية أو الإسلامية لأنها لم تبلغ ماهية الحرية الحقيقة وظلت حبيسة الأعراض الزائلة والناتجة عن التاريخ والسياسة والمنافع الذاتية الضيقة، مفهوم الحرية في فكر " أبو القاسم الحاج حمد" هو مفهوم مشدود إلى الإنسان، بل إنه أساس إنسانيته وحدد طبيعته، الطبيعة الروحية الموجهة للإنسان التوجيه السليم الذي لا يحيد عن ثقافة السلم والتسامح، والحوار والتعايش الذي بفضله يزدهر العمران، وتنبت الفضائل ، وتنتشر الخيرات.

1 محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، ص27.

ومن بين المفاهيم أيضا التي تحتاج إلى تعميق النظر، وإعادة النظر فيما علق منها من رواسب أخفى دلالاتها الشرعية الحقيقة مفهوم السلم الذي يكتسي ضمن النسق المعرفي الإسلامي دلالات خاصة فهو الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم والدول التي لا تدين بالإسلام[1]، والسلم يتخذ شكل تبادل إيجابي غايته تحقيق مقاصد تتمثل في: نشر الإسلام ودعوة الناس إليه، وتبادل المصالح والخبرات والمنافع بمعنى أن السلم في الفكر الإسلامي هو خطاب كوني غايته تحقيق الخير وتكريم الإنسان وصون كرامته، وفتح المجال أمام حريته.

والسلم هو أساس فلسفة الوحي التي تضع تنصب عينيها بناء الحضارة والعمران لهذا فإن العلاقة بين المسلمين وغيرهم كانت تتم من خلال الانضباط لمجموعة من القواعد:

أ-دبلوماسية التفاوض: التي قوامها الحوار وتبادل وجهات النظر بين ممثلي دولتين أو أكثر، بقصد التوصل إلى عقد اتفاق دولي بينهما، يتناول بالتنظيم ما تريد الدولتان أو الدول تنظيمه من قضايا.

وقد عرف المسلمون التفاوض ومارسوه في عصر النبوة وخاضوا غمار التفاوض الدبلوماسي تدعيما لفرص التعايش السلمي بينهم وبين غيرهم من الأمم التي لا تدين بالإسلام. والقرآن الكريم يؤسس لشرعية التفاوض ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ اَنْ يَّقْتُلَ مُومِناً اِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُومِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ اِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلاَّ أَنْ يَّصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُومِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ اِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ [النساء: 91].

ب-الوفاء بالعهود والمعاهدات: نظرا لأهمية المعاهدات تم تنظيمها في أطار قوانين كميثاق الأمم المتحدة، ويمثل الوفاء بالعهود واحترام المواثيق أساس ثبات واستقرار العلاقات بين الدول وهو ما يضمن السلم العالمي، وعند الفقهاء نجد أن المعاهدات تتجاوز الحصر والتقييد في تنظيم العلاقات بين الدول لتشمل حتى القبائل والأقوام أو الطوائف، والوفاء بالعهود في القرآن الكريم يرتقي إلى مرتبة التقديس.

1 محمد الناصري، ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل، وزارة الأوقاف، الكويت، ط1، 2014.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 92].

ونجد في السيرة النبوية أمثلة عملية للوفاء بالعهود، قال صلى الله عليه وسلم: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء"[1]

لكن هذه العهود ينبغي ألا تتعارض مع شرع الله، وأن تنعقد بناء على الاختيار المعبر عن الإرادة الحرة، مهنا تظهر إنسانية الفكر الإسلامي وأخلاقيته وإيمانه بالحرية والإرادة فهو يرفض العهود التي تتم على أساس القهر والغلبة، وتخضع للقوة والضغط فهي عهود باطلة.

ج-تبادل الرسل والسفارات: التمثيل الدبلوماسي ضروري لصيانة السلم ومن خلال هذا المنظور سيعطيه الإسلام أهمية قصوى حيث أن كثير من الآيات القرآنية ذات الدلالة على مشروعية تبادل الرسل والسفارات، ومن ذلك آيات سورة النمل ذات الصلة بتبادل العلاقات بين نبي الله سليمان وبلقيس في إطار دعوة هذه الأخيرة هي وقومها إلى الإسلام لرب العالمين، إذ تنطوي هذه الآيات على العديد من الأحكام ذات الدلالة على شرعية إرسال الرسل وتبادل السفارة بين الدول الإسلامية وغيرها من الدول.[2]

وتضمنت السنة النبوية العديد من الوقائع والأحداث والأحكام ذلا الصلة بإرسال الرسل والسفارات مما يدل بطريقة واضحة على شرعية تبادل هذا الشكل السلمي من أشكال الاتصال وإقامة العلاقات بين الدول والجماعات. والإسلام يحرص على رعاية حق السفراء والمبعوثين وصيانة أرواحهم انطلاقا من فلسفة الإسلام القائمة على العدل والرحمة والسلام.

والسلم لا يقتصر فقط على غياب الحرب أو العنف، بل هو في الإسلام دعوة للانفتاح على الغير وقبوله واحترام اختلافاته وهكذا يقودنا الأستاذ الناصري بشكل منطقي ومنهجي إلى الحديث عن مفهوم التسامح في التجربة النبوية من خلال: وثيقة المدينة وميثاق نصارى نجران.

1 أخرجه أبو داود كتاب الجهاد، باب الإمام يكون بينه وبين العدو عه فيسير إليه برقم 2759.
2 محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، ص44.

فعلا التسامح لم يرد في القرآن لكن هناك ما يفيد وما يقارب معاني مفهوم التسامح وبالتالي يدحض الباحث الأطروحة التي تقول بغياب مفهوم التسامح في المجال التداولي الإسلامي فهناك مصطلحات أخرى تعبر عن هذا المفهوم: الصفح والعفو والرحمة، والمغفرة، والتعرف، والتعاون، والسلم، والأمن، وعدم الإكراه والحق في الاختلاف واعتبار ذلك من سنن الله في الخلق... وكلها من صفات التسامح.[1]

والتسامح في الإسلام يتجاوز مستوى الحياد ليكون تسامحا إيجابيا، يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

والتسامح النبوي هو التطبيق العملي لدلالات التسامح القرآني، فالتسامح في الإسلام لم يكن خطاب أو شعار أو إيديولوجيا، بل كان واقعا مجسدا يدلل عليه الأستاذ محمد الناصري من خلال:

أولا: وثيقة المدينة: قامت على قيم التعددية، وحرية العقيدة، والمواطنة والمساواة، والعدل، والتعاون، والإدارة السلمية للاختلافات، التعددية في وثيقة المدينة تتجلى بالخصوص في التعددية الدينية حيث لم يميز الإسلام بين المسلمين وغيرهم على اعتبار اختلاف الدين وهنا تدحض الأطروحة القائلة بأن المواطنة في الإسلام كانت للمسلمين فقط لأنها نتاج لاتفاق إرادي حر بموجبه تم إنشاء العقد الاجتماعي الذي يضمن حقوق الجميع.

كما أن وثيقة المدينة قامت على أساس المساواة حيث أن اليهود يستفيدون من جميع الحقوق بدون تمييز طبقي أو عنصرية، الكل سواسية لا فرق بين غني وفقر، قوي وضعيف بمعنى أنهم يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون، ولهم كذلك الحق في اختيار الاحتكام إلى الرسول في ما يخص أحوالهم الشخصية، وحتى في المحاكمة فإنهم يقفون على قدم المساواة مع المسلمين في إطار محاكمة عادلة، ولهم الحق أيضا في الانتساب إلى الأمة.

وراهنت وثيقة المدينة على الحرية باعتبارها شرط أساسي للتسامح فكانت لليهود الحرية بأشكالها وصورها المختلفة: الحرية المدنية، والاقتصادية، والسياسية، وحرية التعبير، والتنقل(....) ومفهوم التسامح

1 المرجع نفسه، ص53.

كما تبلور في ميثاق المدينة يقوم على التفاعل الإيجابي والتعاون على الخير حيث أنه لا تسامح بدون تعاون وتناصح، وتجاوز للتوتر والصراع الطائفي، هكذا يمكن أن نقول مع الأستاذ محمد الناصري أن التسامح خلق إسلامي أصيل.

ثانيا: ميثاق نصارى نجران: من مظاهر التسامح في هذا الميثاق:

أ- احترام حرية الاعتقاد، ومن مظاهر حرية الاعتقاد: حرية الحوار الديني، وحرية ممارسة الشعائر الدينية وإقامة المعابد.

ب- الحرية في التزوج بالمسلمين ولا يحق للمسلم ولا يحق للمسلم إكراه النصرانية على تغيير دينها إن قبلت الزواج منه.

ويقرر الميثاق بشكل واضح وصريح أن العدل والمساواة شرطان أساسيان لكل التسامح، وألزم الميثاق المسلمين بتقديم المساعدة والعون للنصارى حين يتعلق الأمر بإصلاح الكنائس وترميمها تعبيرا عن الأخلاق القرآنية، وقيم الإسلام التي غايتها نشر السلم وتحقيق الأمن، وتجاوز التعصب.

والإسلام يتجاوز مستوى الاعتراف بالآخر المخالف إلى المشاركة الاجتماعية معه في اطار المودة والمجاملة، فيجعل طعمهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلا لهم، وارتباطا بهذه الرؤية الإنسانية القائمة على التسامح نجد أن اليهود في المغرب اكتسبوا، وضعية أهل الذمة فكان موقف المسلمين من منطلق هذا النظام هو تمتيعهم بالحقوق غير منقوصة، والتعامل معهم بالحسن، وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية: قضائية كانت أم دينية أم اقتصادية.

استمرارية اليهود وحضورهم في المجتمع المغربي ينبع من فلسفة الإسلام القائمة على التسامح، وهنا يتم دحض وتفنيد الأطروحة التي ترجع هذا الحضور إلى وزن الطائفة الديمغرافية وتجدرها التاريخي، بل إلى نمط التعامل الذي تلقوه في المغرب (تسامح السلمين معهم من منطلق نظام أهل الذمة).

هذا النظام ضمن لليهود في المغرب التسامح والمساواة والعدالة، فتمتعوا بحقوقهم الدينية والمدنية، وعاشوا فوق التراب المغربي على قدم المساواة مع المغاربة المسلمين في نطاق ما يحدده الشرع في الكتب الفقهية لأهل الذمة في الوقت الذي كانوا في جميع أطراف العالم المسيحي محرومين من أي حق قانوني[1].

ومن مظاهر التسامح الديني بين المسلمين واليهود بالمغرب نجد:

أ-على مستوى الاقتصادي: الحرية في مباشرة التجارات والصناعات، والحرف كسائر المسلمين وهذه الرؤية مكنتهم من الاطلاع بدور هام في الاقتصاد المغربي فكانوا فاعلين فيه وراكموا الأرباح، وهذا شجع الوافدين على الاستقرار بالمغرب وبالتالي فوضع اليهود في المغرب كان أفضل من وضع إخوانهم في أوربا.

ب-على مستوى الثقافي: كانت هناك مدارس دينية بالمغرب تعنى بتعليم التوراة والعبرية، هذه المدارس كفلت له الاستقلال الذاتي وحافظة لهم هويتهم الثقافية.

ج-على المستوى القضائي: كان ليهود المغرب سلطتهم القضائية المستقلة، ينظم سير القضاء فيها ويحافظ على الخصوصية ويعزز سلطة قانونها.

د- على المستوى الديني: حرية الاعتقاد والتعبد والتدين: "لا إكراه في الدين"، واحترام كتبهم المقدسة، وشعائرهم التعبدية واحتفالاتهم الدينية.

وحتى اليهود كان لهم الوعي بقيمة وأهمية نظام أهل الذمة ويتجلى ذلك في استنجادهم بمقتضيات الشريعة الإسلامية في عهد الحماية موجهين رسالة إلى ملك المغرب أكدوا من خلالها: " أن صاحب الجلالة الشريفة سوف يخرق القوانين الشرعية إذا صادق بواسطة ظهير على إجراءات منافية لروح النص القرآني ولفظه، التي تبيح لأهل الذمة من النصارى واليهود، العيش في دار الإسلام وممارسة كل الحرف والصنائع غير الشرعية شريطة دفعهم الجزية واحترام الدين الإسلامي."[2]

ومن خلال هذا المنظور يضع الأستاذ محمد الناصري أطروحة ابن عزرا في "المرثية العبرانية" موضع نقد ومساءلة لأنه لا تصف واقعا، بل هي مجرد تكهنات، واستنتاجات من مقدمات مغلوطة، يقول محمد

1المرجع نفسه، ص77.
2 محمد كنبيب، المغرب من العهد العزيزي إلى سنة 1912، الجامعة الصيفية، 1997، مطابع المحمدية، ص230.

بن الشريفة فيهذا السياق: " تنقل ابن ميمون وأسرته في أرجاء امبراطورية الموحدين هو في حد ذاته يحمل في طياته أبرز دليل على حرية اليهود يومئذ في التنقل بأنفسهم وأموالهم والإقامة والرحيل حيث يشاؤون."[1]

والموحدين لم يعاملوا اليهود وحدهم بالشدة بسبب ديانتهم فسياستهم كانت تتميز بالاضطهاد والعنف والقوة اتجاه المعارضين، والعناصر المشكوك في ولائها في مختلف القبائل، وهذه المحنة شملت الفلاسفة(ابن رشد)، والفقهاء (المالكية)، والمتصوفة، وبالتالي لا بد من تجاوز الذي اعتبر التعامل مع اليهود في عهد الموحدين هو الأصل[2] والمبدأ والأساس، بل هو حالة معزولة لا تمثل جوهر الإسلام القائم على التسامح، أما في فترة الأزمة تضيع حقوق المسلمين وغير المسلمين.

ومن المفاهيم التي تم تداولها على نطاق واسع فب الفكر الإسلامي المعاصر، مفهوم الحاكمية ، وهو مفهوم تداخل فيه المعرفي بالسياسي بالإيديولوجي، ويؤاخذ الباحث على الباحثين الذين تناولوا هذا المفهوم الاقتصار على التناول الأدبي والخطابي والوعظي، وتغييب الأبعاد المنهجية مما سجن المفهوم في حدود ضيقة وتم تناسي الأبعاد الفلسفية للمفهوم.

ويعد "المودودي" أول من صاغ فكرة الحاكمية الإلهية في الإطار السياسي والاجتماعي والقانونين وقد قام بتوظيف ذلك من اجل بناء نظرية سياسية تقوم على منظومة عقائدية حيث تتجلى الحاكمية الإلهية في السلطتين السياسية والقانونية.[3]

الحاكمية تعبر عند "المودودي" على أن سيادة الله مطلقة وفي جميع المجالات السياسية والقانونية والحكم له وحده والإنسان لا حظ له من الحاكمية إطلاقا، وأي جماعة مناقضة للإسلام ينبغي قطع دابرها، وفي نفس السياق يذهب "السيد قطب" الذي اعتبر تحرير الإنسان من العبودية للعباد يكون بالثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها، وتحطيم مملكة البشر لصالح لإقامة مملكة الله في الأرض.[4]

---

1 محمد بن شريفة، حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين، ندوة " حلقة وصل بين الشرق والغرب، أبو الحامد الغزالي وموسى ابن ميمون، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1986، ص40.

2الأصل هو أن اليهود عاشوا في المغرب منذ الفتح الإسلامي في ازدهار سياسي وثقافي واقتصادي، وكانت لهم الحرية الدينية، وتمتعوا بكافة الحقوق، وتقلدوا مناصب سياسية، وشاركوا في الحياة العامة وهذا دليل على التسامح.

3محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، ص93.

4 المرجع نفسه، ص 94.

ومملكة الله لا تقوم إلا بإزالة الأنظمة والحكومات ذات الأساس البشري، وللتحقيق هذه الغاية لا بد من الجهاد بالسيف والبيان، وهكذا ينتقد الباحث المصادرة على حق الإنسان في أن يكون مصدرا للسلطة، وأن يدبر شؤون حياته حتى اعتقد البعض أن الإسلام ثيوقراطية وحتمية إلهية.

لهذا لا بد من تجاوز هذا الطرح لأنه لا تعارض بين الحاكمية الإلهية وحاكمية البشر لأن هذا التعارض لا يستقيم فلسفيا ولا منهجيا، وذلك للفارق الجوهري بين الطبيعتين: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، فالأولى أزلية تمارس الحاكمية بأشكال مختلفة طبقا لمقتضيات مكان الإنسان وزمانه دون أن تستلبه، ودون أن يكون هذا الإنسان مكافئا لها مهما منحته من حاكمية خاصة به أو سلبته إياها.[1]

الله تدرج بالإنسان ليحكم نفسه بنفسه، وأسند الله الحاكمية للبشر إلى أفضل الخلق الرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحي، والمعصوم من الخطأ، الإنسان يمارس السياسة من خلال كونه مستخلفا موصول بالله عبر الإلهام والإيحاء، سخر الله له الطبيعة والكائنات، وأمره ببناء الحضارة والعمران.

الحاكمية البشرية تؤدي إلى بناء الحضارة الكونية بأبعادها الغيبية والإنسانية والطبيعية، بحيث لا يتحول الغيب إلى لا هوت يستلب الإنسان والطبيعة، ولا يتحول الإنسان إلى وجودية عبثية إباحية فردية، ولا تتحول الطبيعة إلى جبرية مادية فكل يتدامج في جدلية الغيب والإنسان والطبيعة.[2]

وهكذا تكون الحاكمية البشرية اداة تحرر للإنسان فهي تحرره من التسلط باسم الحق الإلهي، كما تعطي للإنسان قدرة مستمرة على تجديد الأحكام من خلال تعامل الأجيال القارئة مع القرآن. وبالتالي يكون القرآن بديل حضاري ليس للمجتمع الإسلامي، بل للمجتمع الإنساني، بل إنه في إطار إعادة النظر في مفهوم العالمية، فالإسلام شعاره التفاعل الإنساني مع المجموع البشري دون ادعاء التفضيل والوصايا على الآخرين، فالإسلام شامل لمختلف الحالات البشرية في تعدديتها الدينية والثقافية.

ليخلص الأستاذ " محمد الناصري" إلى ضرورة تخليص الحاكمية من الشوائب الي أثرت سلبا في الحياة الفكرية والدينية والسياسية للأمة، وعلى علاقة المسلمين بغيرهم وكرست التخلف.

1 المرجع نفسه، ص97.
2 المرجع نفسه، ص100.

ارتباطا بكل هذا يمكن القول أن العلوم الإسلامية تحتاج إلى تجديد وتطوير مناهجها ومعارفها حتى تتلاءم مع حجم مكنون القرآن الكريم، وتستطيع الاقتباس من المطلق، ولا ينبغي أن تتحول هذه العلوم إلى عائق أمام تحقيق هذه الغاية حيث يهيمن النسبي على المطلق ويتم سجنه في الزمان والمكان والسقف المعرفي لسياق معين، وتتحول هذه المعارف والعلوم إلى مسلمات لا يجوز نقدها أو الطعن فيها.

من هنا تطرح ضرورة الانخراط في مشروع تأسيس علم المراجعات في التراث الإسلامي، ومن المنخرطين في هذا المشروع المفكر "طه جابر العلواني" الذي دعا إلى تأسي فقه المراجعات يقول في هذا السياق: " وعلم المراجعات جدير بأن نعمل على إرساء مبادئه وقواعده، ليأخذ شكله العلمي الدقيق المتميز، وتتيسر دراسته، والمهارة فيه وإتقانه وتداوله بين الباحثين، لتنضجه حوارات العلماء وجهود الباحثين، ويصبح بذلك علما يتخذ من "العلوم والمعارف النقلية" موضوعا وميدانا لبحثه ودراسته، فيعمل على دراسة وتحليل النظم والأنساق المعرفية التي تكونت هذه المعارف في إطارها، ومراجعة نظرياتها المعرفية ومصادرها ونماذجها ومناهجها وفلسفتها وتاريخها وآثارها ونتائج تفاعلها مع الأنسان والكون والحياة."[1]

هذه الرؤية لا ترمي إلى الإلغاء أو التنكر والتنصل بل تنطلق من التراث بهدف اكتشاف منهجيته وإيجاد صلاحيته، والأصل الإبستيمولوجي لهذه المراجعات هو القرآن الكريم، يقول العلواني في هذا السياق: " قد قام القرآن بمراجعة تراث الأنبياء والمرسلين، ومراجعة تراث الأمم السابقة وحضاراتها وثقافاتها، وسائر أطوار نهوضها وتراجعها، ورقيها وصعودها وتخلفها وانهيارها، وفي كل ذلك يبين الأسباب والعوامل والوسائل وينبه على القواعد الحاكمة في ذلك-كله- وقد راجع القرآن تراث النبيين كافة وبين ما زيف منه، وما دخله التحريف، وما ضيعه الأحبار والربانيون، وما كتبوه بأيديهم ونسبوه إلى الله افتراء عليه، وراجع المعتقدات التي دعا الرسل إليها، وبين كيف دخلها الغلو والتزييف، وأعاد عرضها بعد ذلك نقية خالصة صافية، وكذلك فعل مع جميع الشرائع التي جاء بها المرسلون (...) وقد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذي القرآن على تعزيز دور "المراجعات" وضرورة القيام بها جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر، والتأصيل

1 طه جابر العلواني، نحو التجديد والاجتهاد: مراجعة في المنظومة العرفية الإسلامية: الفقه وأصوله، دار تنوير، القاهرة، ط1، 2008، ص110.

"للاجتهاد والتجديد" ما هو إلا تأكيد عل ى وسيبة من وسائل تلك "المراجعات" وبناء الأصول المنهاجية لها."[1]

لا إصلاح للفكر الإسلامي بدون علم المراجعات الذي بفضله يمكن إعادة تشكيل العقل المسلم الفاعل، والنقد والمراجعة تقتضي بالضرورة ممارسة النقد الإيديولوجي والمعرفي، وتجاوز الحاجز النفسي الذي يرفض أي مراجعة للتراث، والتخلص من سلطة الإجماع، والتحرر من الاعتقاد بأن مراجعة التراث تؤدي إلى ظهور الفرق وأنها تهدد الوحدة وتؤدي إلى تفككها، وعدم تقديس معرفة الماضي والقول أنها تعكس الحقيقة والصواب والتماهي مع المطلق. هذا الرهان صعب وهذا المنال يتطلب مجهود شاق ومضني الأمر الذي يجعل عملية المراجعة صعبة، بل وخطيرة لكنها ضرورية.

والعلواني لم يظل حبيس التنظير بل إنه تجاوز هذا المستوى إلى التطبيق وفي هذ السياق يأتي كتابه: " نحو موقف قرآني من النسخ" الذي يدحض من خلاله وجود نسخ في القرآن الكريم، والنسخ غي اللغة يفيد معنى الإزالة، وفي الشرع نجد اختلاف تبعا لاختلافهم في اللغة: " نجد من الأصوليين من يعرفه بأن بيان انتهاء مدة التعبد مع التراضي، ومن يعرفه بأنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم، ومن يعرفه بأنه اللفظ الدال على ظهور انتفاء شرط دوام الحكم الأول، ومن يعرفه فيقول: هو أن يرد دليل شرعي متراخيا عن دليل شرعي مقتضيا خلاف حكمه، ومن يذهب في تعريفه إلى أنه رفع تعلق مطلق بحكم شرعي ابتداء، ومن يضطرب فيحاول الجمع بين عدة اتجاهات في تعريفه، ومن يستوحي القرآن والسنة وكلام المتقدمين فيعرفه، بأنه رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر."[2]

يرفض "طه جابر العلواني" هذه التصورات، ويرد عليها بمنهج يقوم على دراسة ما ادعي نسخه من الآيات القرآنية، وإعادة تفسيرها بحيث يزول التعارض بين ما ادعي كونه ناسخا، وما ادعي كونه منسوخا، كما تتبع معاني كلمة النسخ في مواطن ورودها في القرآن مستنتجا أن جميع الآيات التي وردت فيها مادة

1 المرجع نفسه، ص34-35.
2 مصطفى زايد، النسخ في القرآن، دراسة تشريعية تاريخية نقدية، المنصورة، دار الوفاء، ط3، 1987، ص97.

"النسخ" لا يراد بها تلك المعاني التي ذهب إليها الأصوليون والمفسرون واللغويون. النسخ له تداعيات خطيرة ولا يعبر عن جوهر الإسلام ويتعارض مع القواعد الكلية والمبادئ العامة للدين الإسلامي.

وسيرا على منهج التجديد يخوض الأستاذ محمد الناصري غمار دراسة مفهوم شائك وخطير وهو مفهوم الجهاد حيث عهاد إلى الآيات التي تشير إلى الجهاد وبين أن المقصود فيها، جهاد النفس، وذلك بتقويمها، وكفها عن الانحراف، وهذا النوع من الجهاد يعد أعظم جهاد، وبه عرف النبي صلى الله عليه وسلم المجاهد فقال: " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله."[1]

وبهذا يكون مفهوم "الجهاد" أوسع، يشمل عمل القلب بالنية والعزم، وعمل اللسان بالدعوة والبيان، وعمل العقل بالرأي والتدبير، فالجهاد مفهوم سام يقصد به استفراغ الوسع واستنفاذ كل الإمكانات المتاحة للتفاعل مع الإسلام فهما وتطبيقا، نشرا وتعليما.[2]

يتساءل الأستاذ محمد الناصري عن علاقة مفهوم الجهاد بمصطلح القتل؟ أليس "قتال العدو" من الجهاد في سبيل الله؟

فعلا لقد شغل موضوع "القتال" حيزا كبيرا من القرآن الكريم، إذ ذكرت كلمة "القتال" ومشتقاتها في القرآن حوالي سبع وستين مرة، مما يدل على أهميته في الخطاب القرآني. لكن رغم أهمية "القتال" في الإسلام إلا أنه لا يعبر عن حقيقة مفهوم "الجهاد" الذي يشمل الجهاد بالقلب والدعوة والبيان، وما القتال إلا الشعبة الأخيرة من شعبه وليس هو كله، لكن مع الأسف فالشائع عند الفقهاء هو تفسير الجهاد بهذا المعنى، معنى قتال العدو".[3]

والهدف من "القتال" هو نصرة المظلومين والمستضعفين، ومنع الفساد في الأرض، والحرص على تطبيق بنود المعاهدات ومنع نقضها أو الإخلال بشرائطها، بناء على ذلك يرفض الأستاذ محمد الناصري القتال الهجومي أي مبادأة الناس بالقتال لأن هذا الأخير هو ضرورة ملحة تطرحها حماية الدين والدعاة عندما

1 محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، ص125.
2 يوسف القرضاوي، فقه الجهاد، دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2010، ص68.
3 محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، ص128.

تفرض الظروف تحديات على المسلمين، أما الدعوة إلى الدين فإنها تتحقق بالحكمة والموعظة الحسنة، وتتبع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم يبين أن نها كانت دفاعية.

وحتى عند القتال فقد وضع الإسلام دستورا أخلاقيا للقتال فأوجب على المسلمين التحلي بالفضيلة والمبادئ الإنسانية في القتال، وبين الأخلاق التي على المسلمين مراعاتها قبل القتال وبعد انتهائه، ووضع من الأحكام ما يؤدي إلى تجنب الإيذاء والإضرار، فكان القتال في الإسلام قاصرا على المقاتلين في الميدان، فلم يبح الإسلام قتال من لا يقاتل كالأطفال والشيوخ والنساء، والرهبان والعمال والفلاحين كما نهى غن الإفساد بقتل الحيوان وقطع الأشجار والثمار وتخريب العمران.

ب-المنطلق الشرعي: يتمثل في الاجتهاد وهو عبارة عن النظر الذي يستدل على أحكام الشارع بالاستناد إلى مقاصده من شرعه، طلبا للدخول بها إلى مجال العمل[1]، لقد حاول الباحث من الأستاذ من خلال هذه الرؤية الاجتهادية التجديدية المقاصدية أن يعيد النظر في العديد من القضايا الشائكة والراهنية والتي تطرح بحدة في العالم المعاصر من قبيل "الجهاد"، و"السلم"، و"التسامح" و"الحاكمية"، و"الحرية"، و"النسخ"، محاولا الارتباط بالقرآن الكريم، والسنة النبوية للتصحيح المسار الذي اتخذته هذه المفاهيم، هذا التصحيح الذي اتخذ صيغة مراجعة شاملة للمفاهيم.

حيث راجع مفهوم الحرية من خلال البحث عن الدلالة الشرعية للمفهوم، هذه الدلالة الشرعية التي تعكس خصوصية الفكر الإسلامية ومدى تباينه مع مفهوم الحرية كما تبلور في الفكر الغربي الحديث والمعاصر على اعتبار أن مفهوم الحرية في النسق المعرفي الإسلامي يحيل إلى تعميق الوعي بالذات، والسيطرة على الرغبات والأهواء والغرائز، وإسناد مهمة تدبير الجسد إلى الروح فتكون هي المتحكمة في سلوكات الأفراد، لتكون بذلك الحرية في صيغتها الإسلامية ذات طبيعة أخلاقية.

وسيقارب الأستاذ الناصري مفهوم "السلم" من خلال هذا المنظور باحثا عن دلالته الشرعية الحقيقية التي تفاعل إيجابي يرمي إلى نشر الإسلام ودعوة الناس إليه، وتبادل المصالح والخيرات والمنافع، فيكون بذلك السلم وسيلة للتكريم الإنسان وصون كرامته، وفتح المجال أمام حريته. وللتدليل على هذا الطرح استعرض

1 طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة ص249.

الأستاذ محمد الناصري القواعد الحاكمة لعلاقة المسلمين بغيرهم والتي تبين بالملموس أن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم السلم وليس الحرب والعدوان ، والقتال، والعنف.

والسلم في الإسلام لا يقتصر فقط على غياب الحرب أو العنف، بل هو دعوة إلى الانفتاح على الغير وقبول الاختلاف، والمشاركة الاجتماعية للغير لهذا فإن مفهوم السلم يقودنا بالضرورة إلى تناول مفهوم آخر شديد الارتباط به وهو مفهوم التسامح الذي نجده يتجلى بشكل واضح وبمختلف أبعاده في التجربة النبوية من خلال: وثيقة المدينة وميثاق نصارى نجران.

ويواصل الأستاذ مشروعه النقدي التأصيلي بتناول مفهوم "الحاكمية" وبيان خطورة هذا المفهوم وتداعياته السياسية بالخصوص لهذا كانت الدعوة واضحة وصريحة إلى تخليص المفهوم من الشوائب التي أثرت في الحياة الفكرية والسياسية للأمة وكرست أن الإسلام دين العنف والحرب، والاستبداد.

ليخلص إلى أن العلوم الإسلامية تحتاج إلى تجديد المعارف وتطوير المناهج وأن ترقى إلى حجم مكنون القرآن الكريم لأن هذه العلوم حينما تستكين إلى التقليد وتسقط في حبال الاجترار والتكرار تتحول إلى عائق أمام فهم وإدراك مقاصد ودلالات الوحي وفي كثير من الأحيان تقدم صورة معكوسة ومشوهة عنه، وتجعله حبيس الزمان والمكان والسقف المعرفي.

وبالتالي لا بد من التأسيس لفقه المراجعات في التراث الإسلامي، ومفهوم المراجعة يجد أصوله المعرفي في القرآن الكريم وبالتالي هو ليس علم دخيل، وليس دعوة إلى الإلغاء أو التنكر، بل إن القرآن الكريم راجع نراث الأنبياء والمرسلين، وراجع تراث الأمم السابقة وحضاراتها وثقافاتها...

المراجعة هي أساس الإصلاح وبفضلها يمكن بناء عقل ناهض وناقد وفاعل ومبدع ومبتكر، ومن نظريات التي طالتها المراجعة، نظرية النسخ حيث يستشهد الأستاذ محمد الناصري بالمراجعة الهامة التي قام بها المفكر "طه جابر العلواني" والتي أثبت من خلالها زوال التعارض بين ما ادعي كونه ناسخا، وما ادعي كونه منسوخا، وأن نظرية النسخ تتعارض مع القواعد الكلية والمبادئ العامة للدين الإسلامي، ليخلص إلى أن القرآن كله من أول " الحمد لله رب العالمين" حتى قوله تعالى "من الجنة والناس" محكم كله، لا ناسخ فيه ولا منسوخ، ثابت كله، وأن كل ما ادعي نسخه في هذا الكتاب- سواء في ذلك ما ادعي نسخه- بالكتاب

نفسه أو ادعى نسخه بالسنة- دعاوي عارية من الصحة، لا يمكن أن نجد لها أدلة معتبرة لا من الكتاب ولا من السنة النبوية، وأن هناك ظروفا مختلفة قد أدت إلى هذا القول الخطير، وجرت إلى ادعاء وجود ناسخ ومنسوخ في القرآن الكريم، والقرآن من ذلك كله براء."[1]

وفي إطار هذه الرؤية الاجتهادية التجديدية سيتناول الأستاذ "محمد الناصري" بالنقد والتحليل، والتفكيك مفهوم الجهاد باحثا عن دلالته الشرعية التي تشير إلى جهاد النفس بتقويمها، وكفها عن الانحراف، أما في علاقة مفهوم الجهاد بالقتال يبين أن القتال ما هو إلا الشعبة الأخيرة من شعب الجهاد، وينتقد حصر الفقهاء معنى الجهاد في القتال.

والهدف من القتال هو تجاوز الظلم ومنع الفساد، وبالتالي فإن القتال دفاعي وليس هجومي، بل هو ضرورة ملحة تفرض نفسها، أما الأصل في الدين فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وحتى عند القتال فإن المحارب أو المقاتل لا يتخلص من أخلاقه، بل إنه يحافظ عليها فلا يقتل الأطفال والشيوخ، ولا الحيوانات، ولا يدمر الأشجار والثمار، ولا يخرب العمران.

ج- **المنطلق التاريخي**: يرجع الأستاذ "محمد الناصري" في مقاربته للمفاهيم التي تناولها في هذا الكتاب إلى التاريخ ويبحث عن الجذور التاريخية للمفهوم حيث أنه حين تناول مفهوم الحرية رجع إلى النهضة العربية وبين تأثر مفهوم الحرية بالسؤال الكبير الذي طرح في هذه الفترة التاريخية المهمة وهو لماذا تخلف المسلمون وتقدم الغرب؟ وبالتالي سيتم النظر إلى المفهوم من خلال كونه وسيلة للنهوض والتقدم، والانعتاق من الجمود والتخلف، وربطوا التقدم الاقتصادي والتحول السياسي والاجتماعي بتوفر شرط الحرية.

الحرية ستكتسي في الفكر العربي الحديث دلالات مختلفة وستحضر في كل المجالات، وستلهب حماس المفكرين للمطالبة بالاستقلال والحق في التفرد والتميز، الأستاذ "محمد الناصري" يثمن هذه المبادرة الفكرية التأسيسية الإصلاحية لكنه يدعوا إلى ضرورة الانطلاق من الدلالة الشرعية لأنها كانت ستغني الفكر العربي الحديث، وستساعده على بلورة مشروع نهضوي إصلاحي قائم على أسس ومرتكزات متينة.

1 طه جابر العلواني، نحو موقف قرآني من النسخ، ص6.

ويعود الأستاذ "محمد الناصري" إلى التاريخ ليبين أن الأصل في الإسلام السلم وما يدعم ذلك شواهد تاريخية عديدة تتمثل في أن المسلمون عرفوا التفاوض ومارسوه في عصر النبوة، ونجد في السيرة النبوية أمثلة عملية عديدة للوفاء بالعهود، وكذلك رعاية حق السفراء والمبعوثين وصيانة أرواحهم انطلاقا من فلسفة الإسلام القائمة على العدل والرحمة والسلام.

والإسلام لا يقف عند حدود السلم، بل إنه يذهب إلى أبعد مدى لتكون رسالته رسالة للتسامح وخير شاهد تاريخي على ذلك التسامح النبوي كتطبيق عملي لدلالات التسامح القرآني الذي نجده في وثيقة المدينة، وميثاق نصارى نجران.

وفي مقاربته لمفهوم "الحاكمية" نجد أيضا حضور المنطلق التاريخي حيث يعود إلى "المودودي" الذي صاغ فكرة الحاكمية الإلهية وأعطاها أبعاد سياسية واجتماعية وقانونية، وبين مدى تأثير هذا التصور على "السيد قطب" فيما بعد وكيف أن هذه التصورات كانت لها تداعيات خطيرة أخفت الدلالة الشرعية للمفهوم، ورسخت ثقافة العنف، والقتل، والحرب. وحدت من الفاعلية البشرية وسلبت من الإنسان الحق في الاستخلاف.

من هنا تطرح ضرورة الوعي بالتاريخ وبيان مدى ابتعاد العديد من التجارب عن فلسفة الوحي ومقاصده، ورؤيته الإنسانية القائمة على الحوار، والانفتاح، وقبول الاختلاف، والمؤسسة للحرية والسلم والتسامح، لهذا بعد تحقق هذا الوعي التاريخي لا بد من القيام بعملية مراجعة لهذه التجارب وتفكيك ونقد المفاهيم التي أفرزتها وإرجاعها إلى أصولها الحقيقية- والتي لا تمت بأي صلة للوحي.

فالإسلام دين الدعوة إلى البحث والتجديد، والاجتهاد، وبناء المعرفة والعلم ، وتجاوز كل أشكال الصراع والتناقض، وبالتالي فلا مبرر للقول بجود نسخ في القرآن الكريم، كما أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال القبول بما هو سائد في التاريخ وحصر مفهوم الجهاد في القتال، وإهمال الأبعاد والدلالات الحضارية والإنسانية للمفهوم.

ثالثا: البناء المفهومي والمنطقي لقضية الكتاب:

أ- تحديد مفاهيم الكتاب:

الحرية: مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي له بخصوصية تنبع من رؤيته الروحية والوجودية للحرية. حيث أن الحرية لا تتعلق فقط بتحقيق رغبات الفرد أو تلبية احتياجاته الشخصية كما في الفكر الغربي، بل هي حرية مرتبطة بالوعي الذاتي والتوافق مع القيم الدينية والأخلاقية .وترتبط بالإنسان ككائن روحي يعبر عن حريته عبر الوعي بالله والذات، وليس فقط عبر تحرر من القيود. الحرية في الفكر الإسلامي هي تحرر روحي وأخلاقي، حيث تتجاوز الرغبات الجسدية والغرائز، وتتأسس على العقل والفطرة السليمة التي توصل الإنسان إلى مسار من التناغم مع القيم الكونية التي وضعها الله .لحرية ليست إذن تلبية للذات، بل هي وصول إلى أعلى درجات من الوعي والتوافق مع الوحي والشرع.

السلم: السلم في الفكر الإسلامي هو مفهوم شامل يتجاوز غياب العنف ليشمل تحقيق الخير والعدالة، وهو أساس فلسفة الوحي التي تهدف إلى بناء الحضارة والعمران. يتم تحقيق السلم من خلال التفاوض، والوفاء بالعهود والمعاهدات، وتبادل الرسل والسفارات. السلم في الإسلام يعزز التسامح والتعايش مع الآخرين عبر قيم مثل الصفح والعفو والرحمة. إنه دعوة لتحقيق التفاهم واحترام الاختلافات الإنسانية في إطار من العدالة والسلام.

التسامح: التسامح في الفكر الإسلامي هو احترام حرية المعتقد والاعتراف بحقوق الآخرين في ممارسة دينهم بحرية، مع ضمان العدالة والمساواة بين جميع الأفراد بغض النظر عن دينهم. يظهر ذلك بوضوح في ميثاق المدينة وميثاق نصارى نجران، حيث تم ضمان حماية الأرواح والممتلكات وتبادل الحقوق والواجبات بين المسلمين وغيرهم، مما يعكس التزامًا بالعيش المشترك السلمي والوفاء بالعهود.

الحاكمية: مفهوم الحاكمية في الفكر الإسلامي المعاصر يشير إلى حق الإنسان في ممارسة السلطة وإدارة شؤون حياته وفقًا لمرجعية إلهية، حيث يُسمح للبشر بتطبيق مبادئ الشريعة ضمن إطار زمني ومكاني يتوافق مع تطورات المجتمع. على الرغم من أن المودودي والسيد قطب قد صاغا فكرة الحاكمية الإلهية بشكل يشدد على أن سيادة الله يجب أن تسود في جميع مجالات الحياة، بما في ذلك السياسة والاقتصاد، إلا أن هذا التصور

يختزل الحاكمية في حتمية ثيوقراطية، مما يُصادر حق الإنسان في ممارسة السلطة وتقرير مصيره. هذه الرؤية تتجاهل طبيعة الحاكمية البشرية كأداة للتحرر والتطور، حيث أن الحاكمية البشرية ليست مجرد تقليد للسلطة الإلهية، بل هي وسيلة للإنسان لكي يُسهم في بناء حضارة شاملة وعادلة دون التسلط باسم الدين، مع الاحتفاظ بالمرجعية الإلهية في إدارة إ شؤون المجتمع بما يتماشى مع مقتضيات العصر.

التراث: يشير هنا إلى الإرث المعرفي الذي أنتجه الفكر الإسلامي في تفاعله مع الوحي، ومع التاريخ والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والمؤثرات الأجنبية، وهذا التراث يحتاج إلى مراجعة دائمة ومستمرة تتيح إمكانية تجديد المعرفة الإسلامية حسب العصر، وارتباطا بالسقف المعرفي السائد في كل مرحلة، وهذا التجديد يكون انطلاقا من الوحي.

النسخ: لا يشير إلى التعارض بين الآيات القرآنية ، ومعنى النسخ في القرآن لا يعني الإلغاء أو رفع الأحكام، بل إن له تفسير أو تأويل مختلف يتماشى مع المبادئ الكلية للإسلام.

المراجعة: مفهوم شرعي ذو مرجعية قرآنية بموجبه يتم مراجعة المفاهيم بناء على المبادئ الكلية للإسلام، وانطلاقا من فلسفة الوحي القائمة على الاستيعاب والتجاوز، والتصحيح بحثا عن دلالة الشرعية التي أخفها سواء التاريخ أو السياسة، أو الإيديولوجيا...

الجهاد: يبدأ بتقويم النفس، ويشمل الدعوة بالحكمة والموعظة والحسنة، ويقتصر القتال فيه على الدفاع المشروع والضروري في سياق مبدئي أخلاقي وإنساني.

العلاقة بين المفاهيم هي علاقة تكامل وانسجام حيث أن التراث يتشكل من خلال مفاهيم تفاعلت في ما بينها مشكلة الفكر الإسلامي هذه المفاهيم تحتاج إلى المراجعة حتى يتسنى لها القيام بأدوارها الحضارية والإنسانية، وتكون أكثر استيعابا للمعاني ودلالات الوحي، ومن بين هذه المفاهيم: الحرية، والسلم، والسلام، والحاكمية، والنسخ، والجهاد، حيث أن الحرية هي عبارة عن جهاد للنفس، ومحاولة للتحرر من الرغبات والأهواء، وإعطاء النفس مهمة تدبير الجسد، وحين يتحقق ذلك يتحرر الإنسان من كل المشاعر السلبية كضغينة والحقد والحسد ويرمي إلى إشاعة السلم والتسامح من خلال تشريع الإنسان للقوانين اعتمادا على ذاته، وفي تفاعله مع الوحي حيث لا تعارض بين الحاكمية الإلهية والحاكمية البشرية، ورفض

التعارض معناه رفض النسخ فهو لا يعبر عن جوهر الوحي وروحه القائمة على النسقية، فكل عنصر يحتل مكانه الطبيعي، ودور العقل هو إزالة التعارض وإدراك النظام والمعقولية خلف التعارض الوهمي.

ب- منهج الكتاب:

1) المنهج التاريخي:

يعتمد هذا المنهج على تتبع تطور مجموعة من المفاهيم في الفكر الإسلامي عبر الزمن، بدءًا من العصور الإسلامية المبكرة وصولًا إلى العصر الحديث. يُدرس التغيير في المفاهيم والسياقات التي أثرت على تفسير هذه المفاهيم في مختلف العصور.

2) المنهج النقدي (الإبستيمولوجي):

يركز هذا المنهج على تحليل كيفية بناء وتشكيل المفاهيم في الفكر الإسلامي، وإرجاع المفاهيم إلى أصولها المعرفية، ومحاكمة هذه الأصول انطلاقا من الوحي، وهذا النقد يبين كيف أن هذه المفاهيم في كثير من الأحيان ابتعدت عن النسق المعرفي القرآني.

3) المنهج التفكيكي:

يعتمد على تفكيك المفاهيم المطروحة، والبحث عن الأليات التي تشتغل ضمنها وإعادة تفسيرها وفقًا لأسس جديدة. مثلا مفهوم الحرية ثم تفكيكه لكشف التناقضات الكامنة فيه، مع إعادة تركيب المفهوم بما يتناسب مع المعايير الفكرية الإسلامية.

4) المنهج المقارن:

يتمثل في المقارنة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي تارة، والمقارنة بين الفكر الإسلامي كما تجسد في التاريخ من خلال بعض النماذج، وفلسفة الوحي حيث يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر الاختلاف بين مفهوم الحرية في الإيديولوجيا الليبرالية، ومفهوم الحرية في القرآن الكريم، وكذلك المقارنة بين مفهوم الجهاد في الفقه، ومفهوم الجهاد في القرآن الكريم، وأيضا مفهوم والتسامح والسلم كما تجسد في السنة النبوية وكما هو عند بعض تيارات الفكر الإسلامي.

5) المنهج الاجتماعي:

ينظر هذا المنهج في تأثير السياقات الاجتماعية والسياسية على تشكيل مفاهيم الفكر الإسلامي. فمثلا مفهوم الحرية كما تبلور في الفكر الإسلامي كان تعبير عن حاجة اجتماعية تمثلت في تجاوز واقع التخلف، والبحث عن النهضة المنشودة.

6) **المنهج الفلسفي**:

يتعامل هذا المنهج مع مفاهيم الفكر الإسلامي كمواضيع الفلسفية كبرى في الفكر الإسلامي، تعبر عن الفلسفة الإسلامية بما هي رؤية شمولية للوجود والمعرفة والقيم، وهذه الفلسفة ليست مفصولة عن الفكر الفلسفي الكوني فهي أيضا تتناول المفاهيم الكبرى التي طرحها لكن بمنهج مختلف يعتمد على الوحي.

7) **المنهج التأصيلي**:

يهدف هذا المنهج إلى العودة إلى أصول النصوص الإسلامية (القرآن والسنة) لفهم مفاهيم الفكر الإسلامي كما وردت في الدين الإسلامي. يسعى إلى استنباط الدلالة الشرعية للمفاهيم.

هذه المناهج تفاعلت فيما بينها من أجل بناء رؤية تصحيحية نقدية غرضها وضع المفاهيم كما تبلورت في تاريخ الفكر الإسلامي موضع نقد ومساءلة، والبحث في الافتراضات والمسلمات التي انطلقت منها، ومدى انضباطها للمعرفة الإسلامية(الشرعية).

على سبيل الختم: رهانات الكتاب:

يطرح النص رهانا فكريا مركزيا يتمثل في إعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر عبر ثلاثية نقدية متداخلة :تفكيك التراث من خلال مساءلة المفاهيم المحورية (كالحرية، الحاكمية، الجهاد) التي شوهت بفعل التراكم التاريخي أو الاستيراد الأيديولوجي، وتأصيلها انطلاقا من فلسفة الوحي لا من المنظورات الغربية أو الخطابات التراثية الأحادية، وربطها بواقع العصر عبر منهجية تجمع بين النقد الإبستيمولوجي (كما في مشروع "علم المراجعات "للعلواني) والتفاعل الإيجابي مع تحديات العولمة. هذا المشروع ينطلق من إشكالية عميقة: كيفية بناء مفاهيم إسلامية أصيلة قادرة على تجاوز ثنائيات الجمود/التغريب، والثيوقراطية/العلمانية، والعنف/الاستسلام إذ يكشف النص عن تناقضات الخطابات السائدة : من تبني

ليبرالي لمفهوم الحرية إلى تأويلات متشددة للحاكمية والجهاد ويقترح بديلًا يرتكز على النموذج النبوي(وثيقة المدينة وميثاق نجران) الذي يجسد التوازن بين الثبات القيمي والمرونة الحضارية. لكن هذا الرهان يواجه تحديا: داخليا (مقاومة المؤسسات التقليدية للاجتهاد)، وخارجيا (صعوبة تقديم خطاب إسلامي متين في فضاء معرفي مشبع بالتشويهات). بذلك يصوغ النص مشروعا نهضويا يرفض الانغلاق على الذات أو الذوبان في الآخر، ساعيا إلى تحرير المفاهيم من سجن التاريخ والأيديولوجيا لتصبح أدوات فاعلة في بناء حضارة إسلامية معاصرة.

لائحة المراجع:

- محمد الناصري، قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر الحاكمية، السلام، التسامح...، الجزء2، ط1، 2023
- محمد الناصري، ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل، وزارة الأوقاف، الكويت، ط1، 2014.
- أخرجه أبو داود كتاب الجهاد، باب الإمام يكون بينه وبين العدو عه فيسير إليه برقم 2759.
- محمد كنبيب، المغرب من العهد العزيزي إلى سنة 1912، الجامعة الصيفية، 1997، مطابع المحمدية
- محمد بن شريفة، حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين، ندوة " حلقة وصل بين الشرق والغرب، أبو الحامد الغزالي وموسى ابن ميمون، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1986،
- طه جابر العلواني، نحو التجديد والاجتهاد: مراجعة في المنظومة العرفية الإسلامية: الفقه وأصوله، دار تنوير، القاهرة، ط1، 2008
- مصطفى زايد، النسخ في القرآن، دراسة تشريعية تاريخية نقدية، المنصورة، دار الوفاء، ط3، 1987، ص97.
- يوسف القرضاوي، فقه الجهاد، دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2010
- طه جابر العلواني، نحو موقف قرآني من النسخ.
- طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة 1، الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1995.

مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

maarifa-center.com

maarifa2011@ gmail.com

facebook.com/almaarifa.centre

جميع الحقوق محفوظة © 2025

All rights reserved © 2025

لجنة الإعلام والتواصل